Hespéris-Tamuda LIV (3) (2019): 401-407

Mohamed al-Qādi wa Mohamed al-ʿAmārti.- ***Ad-dirāsāt al-ʿarabiyya fī Isbāniyā: judhūruhā wa ’abrazu aʿlāmihā*****, (as-Shāriqa: Dā’irat at-thaqāfa, 2019), 450p.**

محمد القاضي ومحمد العمارتي.- الدراسات العربية في إسبانيا: جذورها وأبرز أعلامها، (الشارقة: دائرة الثقافة، 2019)، 450ص.

صدر مؤخرا كتاب **الدراسات العربية بإسبانيا: جذورها وأبرز أعلامها**، من تأليف محمد القاضي ومحمد العمارتي، عن دائرة الثقافة الشارقة، في حلة بهية من 450 صفحة من القَطع المتوسط. ويندرج هذا الكتاب في إطار مشروع بحثي فكري اتضحت خطوطه ومعالمه في كتاب **الأندلس برؤى استعرابية**: دراسة في مجهود المستعربين الإسبان المهتمين بالتراث الأندلسي، وهو لبنة جديدة تنضاف إلى ما أنجزه باحثون في المغرب وباقي العالم العربي في هذا المجال مثل ميشال جحا في كتابه **الدراسات العربية والإسلامية في أوربا**، ومحمد عبد الواحد العسري في كتابه **الإسلام في تصورات الاستشراق الإسباني من ريموند لوليوس إلى أسين بلاثيوس**؛ وترجمة بعض الأعمال مثل: **في الاستشراق الإسباني: دراسات فكرية** لخوان گويتيسولو، و**الدراسات العربية في أوربا حتى مطلع القرن العشرين** ليوهان فيوك (Johann Fück)، و**المستعربون الإسبان في القرن التاسع عشر** لمنويلا منثانريس (Manuela Manzanares)، و**الأندلس: الدلالة والرمزية**، لبدرو مرتينث مونتابث (Pedro Martínez Montávez)، وهذا فضلا عن مقالات لدارسين متخصصين في الموضوع مثل محمد بنشريفة، وحسن الوراگلي، ومحمد كرد علي...

وجدير بالذكر أن الكتاب موضوع هذه الورقة يتقاطع كثيرا مع سابقه **الأندلس برؤى استعرابية** في جملة من القضايا والتصورات النظرية والتوجهات المنهجية، وإن كان يتوسع في بعض الأمور الواردة فيه. ويتبين للوهلة الأولى سعي كاتبيه إلى التعريف بالدراسات العربية بإسبانيا والمجهودات التي يقوم بها الإسبان في هذا المجال، واستخلاص خصائصها، واستنتاج أبعادها وخلفياتها. وعلى صعيد آخر، يمكن القول إنه عمل يطمح إلى فتح حوار بين الباحثين المغاربة والإسبان في التعامل مع المنتَج الثقافي

Journal Indexed in Emerging Sources Citation Index (Web of Science)
Covered in *Clarivate Analytics* products and services, ISSN: 0018-1005

الأندلسي من جهة، وتوجيه أنظار المغاربة إلى أفق آخر للتفكير أكثر قربا منا جغرافيا وحضاريا من جهة أخرى، بعد أن ساد الاهتمام بما يُنتج في فرنسا والعالم الأنگلوسكسوني، ففتحت على إثر ذلك أوراش بحثية نأمل أن تحقق تراكما كفيلا بإضاءة التجربة الإسبانية في قراءة التراث العربي الأندلسي دعما لأطروحة الحوار الحضاري، انطلاقا من الاشتغال على المشترك بين المغرب (العالم العربي-الإسلامي) وإسبانيا. ويضمر الكتاب دعوة إلى الإلمام باللغة الإسبانية قبل الإقبال على الدراسات الأندلسية من الجانب العربي، وبطبيعة الحال الإلمام باللغة العربية من الجانب الإسباني.

ويسعى المؤلفان إلى تقديم الدراسات العربية بإسبانيا ورصد التطورات التي عرفتها إلى القارئ العربي، من خلال إبراز المؤسسات القائمة منذ العصر الوسيط لتحقيق هذا المبتغى، والتي تعكس شغف الإسبان بالعلم والمعرفة العربيَّيْن-الإسلاميَّيْن؛ وقد جسدت هذا التوجه مدرسة طليطلة ومجهودات الملك ألفونصو العاشر الملقب بالحكيم في إشبيلية، إلى فترات التاريخ المعاصر مع المجهودات المبذولة من قبل مؤسسات علمية لاسترجاع الماضي العربي الإسلامي، وفي مقدمتها: المجلس الأعلى للبحوث العلمية (CSIC)، (مدريد وغرناطة)، ومدرسة الدراسات العربية (EEA)، دون إغفال المعهد المصري للدراسات الإسلامية، والمجلات والدوريات المتخصصة في الموضوع. بالإضافة إلى إعداد مسرد لأعلام الدراسات العربية بإسبانيا في الفصل الثالث المعنون بـ "أبرز المستعربين والمستشرقين الإسبان،" وقد صنفهم الكتاب انطلاقا من منظور صاحبيْه إلى صنفين: مستعربين ومستشرقين. ويتبدَّى من العمل المضني الكبير الذي قام به الباحثان في سبيل جمع المادة المتعلقه بهؤلاء من حيث التكوين والمهام والتوجه الأكاديمي والإصدرات... إلى جانب الترجمة التي يقتضيها نقل المضامين والآراء والتصريحات إلى اللغة العربية، إلا أنه يتوقف عند بعض المعاصرين دون أن يشمل أسماء بارزة أخرى مثل مربيل فييرو (Maribel Fierro)، ومرية خيسوس بيگيرا (María Jesús Viguera)، وخورخي ليرولا دلگدو (Jorge Lirola Delgado) المشرف على العمل الضخم الموسوم بموسوعة الثقافة الأندلسية (*Enciclopedia de la cultura andalusí*) التي صدرت منها إلى حد الآن ثمان مجلدات من الحجم الكبير، وتغطي تجارب رجالات الأندلس على اختلاف أصنافهم. وإن كان هذا المسرد يحتاج بدوره إلى دراسة أخرى تحليلية، تقف على شبكة العلاقات القائمة بين هؤلاء الدارسين والتطورات التي

خضعت لها الدراسات العربية، بالشكل الذي يجعله يخرج من صبغته التقليدية التعريفية إلى حيز التحليل والتركيب.

كما يبدو أن المؤلفيْن قد بذلا مجهودا واضحا في هذا الكتاب من أجل الإلمام بما أنتجه الدراسون الإسبان وحققوه وترجموه ونشروه. هذا إلى جانب رصدهما لما كتب عن هؤلاء الدارسين من قبل الباحثين الإسبان أنفسهم، بما في ذلك ما نشرته صحف ذائعة الصيت عن خوان برنيط ويتعلق الأمر بجريدة إلبييس (El PAIS) و أ ب ث (ABC)، وكذلك من قِبل الدارسين العرب المذكورين آنفا. في حين أغفلا الدراسات الإسبانية الجديدة لباحثين من ذوي الباع في الدراسات الاستعرابية وتقويمهم لها، مثل: برنَربي لوبِز گرثيه (Bernabé López García)، ومنويلا مرين (Manuela Marín)، وأنطونيو خمنيث رييجو (Antonio Giménez Reíllo)، إضافة إلى المؤرخ إدواردو منثانو (Eduardo Manzano).

وبالموازاة مع ذلك، تتبع مؤَلَّف **الدراسات العربية بإسبانيا** بصفة خاصة ذلك الخيط الذي ينطلق من خوان أندريس (Juan Andrés) وخوصي أنطونيو كوندي (José Antonio Conde)، مرورا بفرنثيسكو كوديرا (Francisco Codera) وخوليان ريبيرا (Julien Rivera) وأسين بلاثيوس (Asín Palacios)، وصولا إلى إميليو گرثيه گومث (Emilio García Gomes)، إذ يمكن الخلوص إلى أن كل طالب قد تميز عن أستاذه بمعالجة قضايا ومواضيع جديدة، مما فسح المجال أمام الاستعراب الإسباني وتمكينه من أن يتطور ويمتد ويوسع آفاقه. ولم يتوقف المؤلفان عند هذه المرحلة بل تتبعا تطورات تلك الدراسات في مرحلة ما بعد گرثية گومس مع تلميذه بدرو مرتينث مونطابث، الذي انفتح على الأدب العربي في المشرق مما جعلهما يسميانه بالمستشرق.

واهتم الكتاب في الفصل الأول بدراسة بعض القضايا المتعلقة بمحاولة إسبانيا الرامية إلى استرجاع ماضيها العربي، وهو الموضوع الذي تم تناوله في آخر المؤلف من خلال الحوار الذي أُجري مع فليبي مايو صلگدو (Felipe Mayo Salgado)، رئيس قسم الدراسات العربية والإسلامية في جامعة سلمكا، والذي نعده من أهم الصفحات التي تضمنها هذا الكتاب، إذ كانت الأجوبة بمثابة حصيلة للدراسات العربية الإسبانية اتسمت بالتفسير والتركيب، بدءا من ظهور فئة المستعربين، مرورا برعاية ألفونصو العاشر لحركة الترجمة الخاصة بالمصنفات العربية وإنشاء كرسي الدراسات العربية

بسلمنكا (Salamanca)، ثم اضطهاد اللغة العربية من قِبل الكردينال ثيسنروس، إلى غاية بداية انتعاشها في القرن الثامن، ووضع قواميس لغوية إسبانية -عربية، وبعد ذلك ظهور حركة تجديد الاستعراب الإسباني في القرن التاسع عشر، ثم في الأخير إنشاء شعب اللغة العربية بجامعات إقليم الأندلس.

ويفسر مايو صلگدو الانفتاح الأخير على الثقافة العربية الإسلامية بإسبانيا، بما في ذلك الدراسات الأندلسية بعوامل إسبانية داخلية تتجلى في استفادة هذه الدراسات من جو الديمقراطية والصحوة الإسلامية؛ أي وجوب تعليم اللغة العربية والحضارة الإسلامية في المدارس الإسبانية، والاحتفال ببعض الشخصيات العربية الإسلامية، وإسهام التنظيم اللامركزي الذي عرفته الدولة الإسبانية في هذا الباب. أما العوامل الخارجية، فتتجلى أساسا في نهضة العالم العربي نفسه، فضلا عن الوقائع الراهنة التي عرفها العالم بعد 11 شتنبر وامتداداتها المتلاحقة، وسعي الإسبان –على غرار غيرهم من الغربيين– إلى فهم مفاتيح هذا العالم الإسلامي، وظهور ما اصطلح عليه بموجات الربيع العربي.

وبديهي أن يسعى الكتاب موضوع هذا العرض إلى توضيح ماهية الاستعراب وتعريفه، فقد ارتأى الباحثان أن يعرفاه بأنه تعبير عن تلك "الحركة العلمية الإسبانية التي قامت في أواسط القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين"، واتخذت من التراث الأندلسي خاصة مبحثا واستراتيجية لدراستها واشتغالها وانشغالها العلمي، فظلت أمينة ووفية، ملتزمة بالخط المنهجي والتيمي الذي وضعته لنفسها وارتضته أسلوبا وتصورا ومنطلقا، "فهو من الناحية الزمنية ينحصر في حيز زمني يشمل القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، ومن ناحية الموضوع فيحددانه في الأندلس، وعلى هذا الأساس يكون انشغال المستعرب هو الأندلس بإخراج تراثه وتحقيقه ودراسته، بحيث يميزانه عن الاستشراق الذي موضوعه أوسع وحيزه المجالي أكثر شساعة. أما الاستعراب فهو محدد الموضوع والهدف والغاية المتمثلة في ميدان الدراسات الأندلسية، فلا يدرس بذلك إلا ما هو أندلسي نبت ونشأ وترعرع بإسبانيا الإسلامية."

وإذا كان هذا الأمر ينطبق على المستعربين الإسبان خلال القرن التاسع عشر، في مرحلة استعادته للتراث الأندلسي واعترافه بها، وإدماجه في سيرورة الدولة الإسبانية، وهي مرحلة من مراحل تطور الاستعراب الإسباني من ناحية الموضوع والمنهج، فإن الأمر لم يعد كذلك لاحقا، إذ لم يفتأ، في مرحلة ما بعد إمليو گرثية گومث، ينفتح على

العالم العربي في جميع مناحيه، وليس الاقتصار على الأندلس، إذ صار شرط التمكن من ناصية اللغة العربية عنصرا أساسيا للاستعراب كما يذهب إلى ذلك أنطونيو خمنيث رييجو وغيره من الباحثين المعاصرين. وجدير بالذكر أن كثيرا من الإسبان المعاصرين الدارسين للموضوعات العربية، مغربية كانت أو ومشرقية، يعتبرون أنفسهم مستعربين (arabistas)، ويتنصلون من صفة "المستشرق" تفاديا للحمولة السلبية المقترنة به جراء ارتباطه مبدئيا بالحركة الاستعمارية، في الوقت الذي ينتمي فيه عدد كبير من المستعربين الإسبان إلى صف المدافع عن القيم الإنسانية والمتعاطفين مع قضايا دول الجنوب، ومن بينهم بدرو مرتينث مونطابث –سالف الذكر– والذي يعتبر نفسه مستعربا كما ورد في كتابه الأخير بعنوان: **الأندلس: الدلالة والرمزية**، حين قال فيه بصدد التعريف بالاستعراب ما يلي: "أستخدم هنا مصطلح الاستعراب بمعناه الغربي الأكثر شيوعا، أي تكريس البحث لدراسة الموضوعات العربية دون سواها." و يسير في الاتجاه نفسه، مايو صلگدو الذي كتب في تعريفه للمستعرب: "المستعرب بالمفهوم الواسع يمكن تعريفه بالشخص الذي يدرس اللغة والأدب العربي والتاريخ الإسلامي، أو أي مظهر من مظاهر الحضارة العربية الإسلامية"؛ وهو التعريف الذي نتفق معه، خلافا لما يذهب إليه التعريف الذي يدافع عنه محمد العمارتي خاصة في كتابه **الأندلس برؤى استعرابية**. هذا في وقت نجد أن بعض المستعربين في زمننا الراهن يصرون على الاحتفاظ بذلك الموقف العدائي الموروث عن مواقف الكنيسة الكاثوليكية تجاه ما هو عربي إسلامي، مثل سرفين فنخول (Serafín Fanjul). كما لا تفوت الفرصة للتعبير عن تحفظنا من استعمال المؤلفيْن لمصطلح "إسبانيا المسلمة" في الوقت الذي ينبغي أن نستعمل بكل بساطة مصطلح "الأندلس."

والحاصل أن تخصص الاستعراب الإسباني في الموضوعات الأندلسية تاريخا وفكرا وأدبا، ما هو في نظرنا إلى مرحلة من مراحل تطور هذا الحقل المعرفي في إسبانيا، بدءا من مرحلة استعادة التراث العربي الأندلسي والاعتراف به، بل ومحاولة الدفاع عنه، إلى مرحلة الانفتاح على مواضيع عربية أخرى: مغربية ومشرقية، تخص العربية أو عامياتها، إذ نجد باحثين إسبانا ممن يُعنى بتاريخ الأندلس كما يُعنى بقضايا تاريخ المغرب المعاصر مثل منويلا مرين.

وبخصوص أطروحة الدراسات العربية بإسبانيا، أو بالأحرى الاستعراب الإسباني، فإنها قد تتبدَّى بشكل واضح في نظرة هؤلاء الدارسين إلى التراث الأندلسي،

بل أكثر من ذلك إلى الأندلسيين أنفسهم، وفي طبيعة الدراسات التي أنجزوها وطبيعة المواضيع والمؤلفات التي اهتموا بها. وهكذا اهتم الكتاب بشخصية خوليان ريبيرا إي طراگو، وحلاّه بـ"كبير المستعربين الإسبان"، وهو حسب المؤلفيْن أول من تبنى فكرة الأصل الإسباني لمسلمي الأندلس، وأوقف حياته على دراسة الأدب الأندلسي. بيْد أنه يدافع عن أطروحة مفادها أن "النبوغ" الأندلسي "نبوغ" إسباني، وأنّ نشر التراث الأندلسي مجرد نشر للتراث الإسباني. ولهذا، يمكن رصد مظاهر أسبنة التراث الأندلسي عند خوليان ريبيرا في ثلاثة عناصر: نشر ديوان ابن قزمان وترجمته إلى الإسبانية، واعتبار الموشحات إسبانية تنحدر من تقاليد الشعر الغنائي المحلي، وأخير دور المرأة في أسبنة القادمين من الشرق وشمال إفريقيا وإشاعة اللغة الرومانسية (Romance) والحفاظ على الخصائص البيولوجية الإسبانية السائدة قبل الفتح، ومن ذلك اعتبار انحدار خلفاء بني أمية من أمهات وجدات إسبانيات. وبعده انتقل إلى أسين بلاثيوس فوسمه بـ"قمة الاستعراب الإسباني المعاصر" حيث أولى اهتماما كبيرا بابن حزم، واهتم بأمر هويته هل هو عربي-إسباني أم إسباني عربي؟ والنتيجة التي توصل إليها المؤلفان هي إسهام أسين بلاثيوس في جعل أبرز رموز الثقافة العربية الإسلامية الأندلسية إسبانيين . في حين حلَّى إيمليو گارثيا گوميث بــ"شيخ المستعربين الإسبان" الذي ركز على شخصية ابن قزمان الشاعر الشعبي الأندلسي باللهجة العامية القرطبية، كما اهتم بدراسة الأمثال العامية؛ أي كل ما يراه عنصرا خاصا بالثقافة الأندلسية ومميزا لها.

والنتيجة التي نصل إليها هي أن محمد القاضي ومحمد العمارتي قاما برصد المجهود الكبير الذي بذله الدارسون الإسبان (مستعربون ومستشرقون حسب تصورهما) بغية تصحيح المفاهم الخاطئة لدى الإسبان الذين يتنصلون من اللحظة التاريخية المعروفة بالأندلس، والتي فسروا على أساسها التأخر التاريخي الإسباني عن باقي البلدان الأوربية، واعتبارها أزهى مرحلة في تاريخ إسبانيا؛ أي أنهما يشيدان بهذا الاعتراف تجاه التراث الأندلسي وتجاه الأندلس عامة. كما أنهما لم يغفلا عن التعامل الانتقائي، من قبل هؤلاء، مع المظاهر الثقافية الأندلسية، وإهمال فروع معرفية شتى. وإذا كان الدارسون الإسبان قد ركزوا في هذا الخضم على العنصر الإسباني في حضارة الأندلس، فإن كتب التراجم الأندلسية، وهي كثيرة، تُعدد الأصول العربية والأمازيغية للعديد من الأندلسيين، كما

تم إقصاء بعض مناحي الفكر، وخصوصا المتعلقة منها بالعلوم النقلية ورجالها، مثل الفقه، والأصول، وعلوم اللغة.

وانطلاقا من المنجزات العلمية لهؤلاء الدارسين الإسبان، نستنتج أن الاستعراب الإسباني قد سعى إلى الاعتراف بالأندلس باعتبارها جزءا من تاريخ إسبانيا، وهو اعتراف فيه كثير من الانتقائية للرجال والمؤلفات والمواضيع، بهدف إبراز مساهمة العنصر الإسباني في صناعة الحضارة الأندلسية، وإقصاء العنصر القادم من الشرق وشمال إفريقيا؛ أي أنه سعى إلى أَسْبَنَة الحضارة الأندلسية، وبتعبير منويلا مرين غَرْبَنة الأندلس، واعتبارها إنجازا إسبانيا (أوروبيا)، وبهذا لا يختلف في الجوهر عن الاستشراق القائم على مركزية الذات الأوروبية، فشاعت بعض الاصطلاحات من قبيل "إسبانيا المسلمة،" و"الفن الإسباني-العربي،" حتى يتأتّى لهم إلصاق ذلك التراث الهائل من الفكر والإبداع بالعنصر الإسباني، على حساب المصطلح الأصيل الذي هو الأندلس كما مثلته التجربة التاريخية للدولة الإسلامية في جنوب أوروبا والتي انخرطت فيها مختلف الأجناس والعقائد.

محمد رضى بودشار
أستاذ باحث من تطوان